

بيير بورديو وآليات الهيمنة الرأسمالية

المدرسة، ووسائل الإعلام

عبد المجيد بلغيث

والديمقراطية الليبرالية الغربية التي تمثل آخر أشكال الحكومات الإنسانية، وأكد على أن الأنظمة القابلة للتطبيق والبديلة لليبرالية الغربية قد استنزفت تماماً⁽³⁾.

بينما صدر كتاب "صراع الحضارات"، بعد كتاب نهاية التاريخ، واحتل مجالاً واسعاً من النقاش لدرجة كادت معه أن تختفي أطروحات نهاية التاريخ.

وموقع مستقبل الرأسمالية في الأطروحتين مختلف تماماً، ففكرة نهاية التاريخ تتحدث عن الماضي، وبالتالي تبعث على الاطمئنان على مستقبل أمريكا، إذ هي تؤكد على الانتصار النهائي للبرالية. أما أطروحة صدام الحضارات فهي تتحدث عن المستقبل وتندر بخطر المواجهة والحرب⁽⁴⁾.

أما كتاب "بؤس العالم"، الذي حرره وأشرف عليه أشهر عالم اجتماع أوربي في الربع الأخير من القرن العشرين، فيختلف تماماً عن كتاب فوكوياما وكتاب هنتنغتون. إن وظيفة الأفكار التي تضمّنها كتاب بؤس العالم، هي محاكمة بؤس الرأسمالية، والبرالية، واقتصاد السوق، لقد كان دراسة جادة، عبر كثير من المقابلات الميدانية، لكشف وفضح التزييف الذي تمارسه الرأسمالية داخل ديارها.

وفي هذا الكتاب استطاع بورديو من خلال استجواب كثير من المبحوثين أن يؤكد مقولاته حول العنف الرمزي، ورأس المال الثقافي، وإعادة الإنتاج، وهي مفاهيم رئيسية في سوسيولوجيا

مقدمة:

في العقد الأخير من القرن العشرين شهد العالم مجموعة كبيرة من التحولات، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى الإيديولوجية، كانت كفيلاً بإحداث قطيعة تاريخية مع المرحلة التي سبقتها، وممهدة لبداية مرحلة تاريخية جديدة مختلفة تماماً عن المرحلة التي سبقتها.

أهم تلك الأحداث على الإطلاق سقوط وتفكك الاتحاد السوفياتي، فكان هذا الحدث بمثابة الإعلان الرسمي عن نهاية الحرب الباردة؛ التي طبعت مرحلة ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

على المستوى الفكري والمعرفي، رافق تلك التحولات ظهور مجموعة من الكتابات، التي لاقت رواجاً كبيراً، وحظيت بنقاش فكري ثري، أما الكتاب الأول فهو كتاب "نهاية التاريخ" لمؤلفه فرنسيس فوكوياما، أما الكتاب الثاني، فهو كتاب "صراع الحضارات" لصمويل هانتنغتون، أما الكتاب الثالث فهو كتاب "بؤس العالم" لبيير بورديو⁽¹⁾ وفريق البحث معه⁽²⁾، هذه الكتب الثلاثة عبّرت بدقة عن مرحلة نهاية القرن العشرين.

لقد جاء كتاب "نهاية التاريخ" ليبشّر بعصر الرأسمالية، وانتصار الديمقراطية، وأن هذا الانتصار يشكّل نهاية الإيديولوجيات، بل ونهاية للتاريخ ذاته، فقد أكد فرنسيس فوكوياما أن الإنسانية تشهد الآن آخر محطة في الثورة الإيديولوجية للبشر، ألا وهي عالمية الرأسمالية

بكامله، ومهمتها تبصير الناس بشقائهم، وأسباب هذا البؤس الذي يعيشون فيه.

ثانياً: الهيمنة الرأسمالية وآلياتها

تعود البدايات الأولى لاشتغال بورديو حول كشف الهيمنة الرأسمالية وآلياتها، منذ أبحاثه الأولى حول المجتمع القروي الجزائري والعقلية الرأسمالية في كتابه سوسيولوجيا الجزائر؛ الذي نشره في سنة 1958، قبل استقلال الجزائر عن فرنسا.

ويذكر المشتغلون بفكر بيير بورديو، أنّ سفره إلى الجزائر عام 1955 لأداء الخدمة العسكرية، كان نقطة تحوّل كبيرة في حياته الفكرية، فقد قاده الاختلاط بالشعب الجزائري المقهور والاطلاع على ثقافته ومعاناته؛ ومعاينة الممارسات الاستعمارية اليومية إلى تغيير اتجاهاته الأكاديمية من الاشتغال بالفلسفة إلى الاشتغال بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا؛ من أجل فهم وإدراك طبيعة ممارسات الرأسمالية والآليات التي تكرّس من خلالها الهيمنة والعنف.

المدرسة وإعادة إنتاج التفاوت الاجتماعي

ينظر بيير بورديو إلى المؤسسة التعليمية باعتبارها آلية من آليات إعادة الإنتاج الاجتماعي والثقافي، ويقدم انطلاقةً من ذلك أروع التحليلات حول عملية الاصطفاء الذي تقوم به المدرسة، وما يتضمن ذلك من عنف وإكراه.

يرى أنّ النظام التعليمي الذي انفتح على الجميع في الخمسينيات من القرن العشرين في فرنسا بفضل ديمقراطية التعليم، استطاع استقطاب أبناء مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية، لكنه لم يستطع تحقيق العدالة في توزيع المنافع المدرسية والفرص التعليمية، وإنّ ثمة تصفية غير معلنة تمارسها القوى الرأسمالية

بيير بورديو التي اشتغل من خلالها على كشف وفضح آليات الهيمنة الرأسمالية، خاصة تلك التي تحكم سوق التعليم وسوق العمل. إذاً: كيف استطاع بيير بورديو كشف البؤس، والعنف الرمزي للنظام الرأسمالي؟ وكيف وظّف السوسيولوجيا لتحقيق تلك الرسالة؟

أولاً: رسالة السوسيولوجيا

يعوّل بيير بورديو كثيراً على السوسيولوجيا النقدية المستندة إلى أطر معرفية متعددة من أجل تغيير الواقع الاجتماعي، ويحاول عبر مختلف كتاباته أن ينأى عن السوسيولوجيا الوصفية التي تكتفي بوصف الواقع، ويرفض مقولة سبينوزا: "ليس لنا الشراء ولا الضحك ولا الكراهية، بل الفهم"⁽⁵⁾، بحجة عدم جدوى وصف الناس من دون البحث في عوامل مشكلاتهم، والشروط الاجتماعية التي أوصلتهم إلى واقعهم المتأزم.

في الوقت ذاته يرفض تلك القيود التي تفرضها حدود التخصصات والمجالات المعرفية المحدودة؛ على السوسيولوجيا، وهذا ما يفسر لنا تشعب وتعدد مجالات اهتمامه وأبحاثه، فقد أسهم في مجالات مختلفة من المعرفة؛ كالفلسفة والإثنولوجيا، والتربية، والاقتصاد، وحتى اللغة. تتحدّد الوظيفة الأساسية لعلم الاجتماع، كعلم يرفع النقاب عن حقيقة الهيمنة السائدة داخل المجتمع، عبر مختلف الحقول الاجتماعية وتعرية أسسها الخفية؛ التي تجعل من المهيم عليهم يتقبلونها باقتناع ورضى.

وبالتالي فالسوسيولوجيا تفضح تزيف الوعي المضلل، والانخداع والتمويه الذي يرباه الجميع ويشجع عليه، فيشكل في كل مجتمع، أساساً لأكثر القيم قداسة، ودعامة للوجود الاجتماعي

من خلال المدرسة، يدفع ثمنها أبناء الفقراء والمهمشين.

ورغم انفتاح النظام التعليمي على الجميع؛ إلا أنه ظل مقصوراً على قلة قليلة يمكن من خلالها إعادة تكريس أوضاع التفاوت الاجتماعي، وحيث يتم بث مبدأ التمييز والتفرقة، وإخفاؤه، حيث يمكن رأس المال الثقافي لأبناء الأغنياء من اختيار أفضل المدارس، والأقسام، والاختصاصات، أما أبناء الفقراء والمهاجرين، فيجبرون على الاستسلام لأوامر المؤسسة المدرسية كي يبحثوا عن حظوظهم خارج المدرسة، إن الحياة المدرسية مسدودة الآفاق، ولهذا يجبونها بتكاسل وإهمال⁽⁶⁾.

وسائل الإعلام والتلاعب بالعقول

إنّ تضليل عقول البشر هو بدون شك أداة من أدوات القهر والهيمنة، ومن خلال وسائل الإعلام والاتصال الحديثة تمارس الرأسمالية تلك الوسائل لتطويع الشعوب وتكريس هيمنتها عليها.

وتماماً كما تمارس الرأسمالية العنف من خلال النظام التعليمي، تستخدم كذلك وسائل الإعلام لإعادة إنتاج ذات القيم الاجتماعية والثقافية المرتكزة على الظلم واللامساواة، وبنفس طرق الإكراه والعنف.

ويؤكد بورديو على خطورة التلفزيون، بسبب تزايد الإقبال الكبير عليه، وتكمن خطورته حسب بورديو، في كونه أصبح المصدر الوحيد لتلقي الأخبار والمعلومات لدى الناس، وخطورته أيضاً في تحوله من أداة لنقل المعلومات إلى أداة لخلق الواقع وصناعة الأفكار، ويتخطى خطره ليشمل مجالات مختلفة على مستوى الإنتاج الثقافي.

يقوم بورديو من خلال تحليل الصورة التلفزيونية وأبعادها وتأثيراتها على المشاهد،

وكيف تمارس فعل الحجب أو المنع على المتلقي بهدف صناعة توجهات تخدم مصالح فئة اجتماعية على فئات أخرى، كل ذلك في حركة ناعمة هادئة، مما يعتبر من وجهة نظر بورديو عنفاً رمزياً يتواطأ عليه الممارسون الإعلاميون والمشاهدون المتلقون للرسالة الإعلامية.

عبد المجيد بلغيث جامعة تلمسان

الهوامش:

1- لقد ترك بيير بورديو أكثر من 30 كتاباً ومئات المقالات والدراسات في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية والاجتماعية، كثير منها ترجم إلى لغات عالمية مختلفة، أهمها:

- سوسيولوجيا الجزائر (1958)، • الورثة. الطلبة والثقافة (1964)، • إعادة الإنتاج. أصول نظرية في نظام التعليم (1970)؛ • التمييز- التميز. النقد الاجتماعي لحكم الذوق (1979)؛ • الحس العملي (1980)؛ • ما معني أن تتكلم. اقتصاد التبادلات اللغوية (1982)؛ • درس في الدرس (1982)؛ • مسائل في علم الاجتماع (1984)؛ • الإنسان الأكاديمي (1984)؛ • أشياء مقولة (1987)؛ • الانطولوجيا السياسية عند مارتن هيدغر (1988)؛ • إجابات. من أجل إنسيات انعكاسية (1992)؛ • قواعد الفن. تكوّن وبنية الحقل الأدبي (1992)؛ • بؤس العالم (1993)؛ • عللٌ عملية. في نظرية الفعل (1994)؛ • في التلفزة (1996)؛ • تأملات باسكالية (1997)؛ • السيطرة الذكورية (1998)؛ • البنيات الاجتماعية للاقتصاد (2000)؛ • علم العلم والانعكاسية (2001)؛ • تدخلات. العلم الاجتماعي والعمل السياسي 1961-2001، (2002)؛ • توطئة لتحليل- ذاتي (2004)؛

أعماله المترجمة إلى العربية

- درس في الدرس (عبد السلام بنعبد العالي)، 1986؛ • حرفة عالم الاجتماع (نظير جاهل)، 1993؛ • العنف الرمزي. بحث في أصول علم الاجتماع التربوي (نظير جاهل)، 1994؛ • أسئلة علم الاجتماع (إبراهيم فتحي)، 1995؛ • أسئلة علم الاجتماع. في علم الاجتماع

- فرانسواز، أوفران، ألان أكاردو، شارل سولبييه، إيمانويل بورديو.
- 3- فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ، بيروت: دار العلوم العربية، 1993. ص116.
- 4- محمد عابد الجابري. قضايا في الفكر المعاصر. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997، ص84.
- 5- بيير بورديو. بؤس العالم. الجزء الأول. ترجمة: محمد صبح، مراجعة: فيصل دراج. دمشق: دار كنعان، 2010، ص14.
- 6- محسن خضر. عرض كتاب بؤس العالم. مجلة العربي، العدد 554، يناير 2005، ص215.

- الانعكاسي (عبد الجليل الكور)، 1997؛ • قواعد الفن (إبراهيم فتحي)، 1998؛ • عن التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول (درويش الحلوجي)، 1999؛ • العقلانية العملية. حول الأسباب العملية ونظريتها (عادل العوا)، 2000؛ • السيطرة الذكورية (أحمد حسان)، 2001؛ • بؤس العالم (محمد صبح)، 2001.
- 2- كتاب بؤس العالم، مؤلف جماعي أشرف عليه وحرر أكثر فصوله بيير بورديو، وشارك فيه، كل من: روزين كريستان، عبد المالك صياد، باترك شامبنيه، غابرييل بالاز، لوبيك ج. د. فاكانت، فيليب بورجوا، ريمي لوناوار، ميشال بيالو، ستيفان بود، ساندرين غارسيا، جان باران، لويس بانتو، سيلفان بروكوليشي، روزين كريستان،